

شذرات

الملكات العربيات قبل الاسلام^١

هي لمحة سرية تشمل بلاداً تمتد من المدائن الى رومة من جهة ومن البحر الاسود حتى خليج فارس من جهة أخرى وتدرس فترة تفوق ستة عشر قرناً . ويستخلص القارئ من بين السطور أن غاية الباحثة إظهار مقدرة المرأة العربية واحترام العرب لها واعترافهم بمقامها في الحكم والسلطة عند ما تُظهر الكفاية اللازمة . غير ان الكتابة لا تقتصر دراستها على النساء اللواتي اُبتن موهبتهن بالحكم وأظهرن استقلالهن في العمل بل هنالك فئة كبيرة تذكرها لمجرد اشتهارها بين العرب او لاقتران اسمها ببعض الشخصيات الكبيرة كتلك السليلة التي عُرفت باسم « هند » والتي تسر قراتها القارئ لطرافتها ولبعض السذاجة التي نجدها في حوادثها .

فتلك مينة هند زوجة حُجر بن عمرو المفجعة تظهر لنا وحشية رجل جرحت عواطفه وانحطت عفتوانه فربط امرأته الى جوادين فزقاها وذلك لانها هربت مع المدو الذي سبها وباحث له بكرها لزوجها . ويبي ذلك حادثة صبياني جرى مع هند ثالثة هي ابنة حارث بن عمرو بن آكل المرار وأم عمرو بن هند التي بنت ديراً عرف باسم « دير هند الكبرى » ويأخذ بأن عمر بن هند سأل يوماً خَلَّانَه عما اذا كانوا يعرفون بين العرب من يأتي ان يُخدم امه والدة عمرو فأجيب : نعم هنالك عمرو بن كلثوم . فدعا عمرو بن هند عمرو ابن كلثوم ووالدته ليلى لضيافته وطلب الى والدته أن تصرف الخدم وهم الى المائدة وتطلب الى ليلى ام عمرو بن كلثوم ان تقدم لها طبق الحلوى : غير انها لم تكذب تلح على ليلى ان تقدم لها الطبق حتى صاحت هذه الاخيرة : « يا لاهانة زمالوا يا رجال تغلب » . فما كان من ابنها الذي سمع صراخها بينما كان الآخرون

(1) Nabia Abbott, *The American Journal of Semitic languages and literatures*. Pre-islamic Arab queens. Volume LVIII, January 1941. Number 1.

يتباطون الحجر الا ان استل سيف عمرو بن هند الذي كان مطلقاً على .قربة منه وضرب به مُضيفه فقضى عمرو بن هند شهيد حبه لوالدته .

وهناك « هند الصغرى » ابنة النعمان الثالث او أخته التي دخلت الدير لانها لم تتمكن من الاقتران بعدي الذي كانت تحبه وذلك لان أباه سجنه وقتل في السجن قتلة شنيعة وعرف الدير بعد ذلك « بدير هند الصغرى » نسبة لها ويقال ان مغيرة بن شعبان حاكم الكوفة (٦٤٣-٦٤٥) قد زارها في الدير وطلب اليها ان تعتن به رغم انها كانت مسنة وعمياء . فرفضت فتركها مغيرة بعد ان قال بها الشعر .

تلك قصص طريقة تاذ القارى غير انها لا تظهر شيئاً عن تفوق المرأة اللهم الا ما عهد عنها ، او بالاحرى ما ألصق بها ، من إثارة مشاكل عائلية وغرامية .

غير ان هنالك نساء أخر تذكرهن الكاتبة قد يقف امامهن حيارى من يدعون ان للمرأة امكانيات غير امكانيات الرجل اذ نجد اولئك النساء يسهرن على المهالك فينظمنها احسن تنظيم ويلعبن بعرش رومة فيرفعن امبراطوراً ويستقطن آخر ويقمن باعمال يفقن بها رجال عصرهن . ولا تذكر من النساء ملكة سبأ التي ملأ ذكرها الشرق والغرب مآلماً في تاريخها من الفروض والايام وقد تكون الملكة الوحيدة التي قامت في جنوب الجزيرة .

اما في الشمال فإننا نجد شمسي تقف بوجه تقلت فلاسر الثالث وتساعد ملك دمشق على هدوه الآشوري غير ان هذا الاخير يشن عليها حرباً شعواء يضطرها الجوع فيها والعطش الى الخضوع الا أن تقلت فلاسر لم يعزلها من الحكم بل اكتفى بفرض جزية قوية ووضع رقيب آشوري في بلاطها ليرسل له التعليمات الرافية عن سلوكها وعن قبائلها الى درلته . وتقول الكاتبة ان بقاء شمسي بالحكم رغم فشلها السياسي واندحار جيشها وخضوعها للمدو لما يظهر لنا المكانة الرفيمة التي كانت تتبوأها الملكات عامة ومكانة شمسي خاصة ومقدرتها في تسيير الامور الداخلية وادارة شؤون مملكتها .

ثم نجد تخونو Tékhunu تجارب سنحاريب وتندحر امامه ايضاً فينقلها هي وآلفتها الى نينوى .

وبعد ذلك تنتقل الكاتبة الى ذكر الدور العظيم الذي لعبته النساء .

« المرييات » في الامبراطورية الرومانية فتذكر زواج ستيموس سفيروس من مرتا ابنة باسيانوس (Bassianus) الامير الكاهن في حمص التي اصبحت فيما بعد الامبراطورة جوليا دوما (Julia Domna) والتي لعبت الدور الاول في عهد ابنها كركلا (Caracalla) وكان تأثيرها عليه دائماً حُجِر الدولة وهي التي حالت دون تقسيم الامبراطورية بين كركلا وأخيه وقد داومت على « إدارة الشؤون المهمة في الدولة ببطنة وتبصر كنا محققان من كثرة اسراف كركلا » . وقد عرفت تلك الامبراطورة مجدداً عظيماً وحملت القاباً لم تحملها امرأة قبلها ولما اغتصب الملك مكرينوس (Macrinus) أعادها الى مصاف العباد ثم ابعدها عن روما فماتت بعد شهر قلائل اما لاضرابها عن الطعام او لجوع فرض عليها .

غير ان مكرينوس (Macrinus) لم يرتجح بموتها بل قامت جوليا ميذا (Julia Mesa) اختها قدس له المكائد ولم تألُ جهداً حتى استقطت عن العرش ووضعت مكانه ابن ابنتها البكر التي ادعت انه ابن كركلا غير الشرعي ولكنه كان مختلاً فادعى انه هو نفس الاله الذي كان كاهناً له لذا دعا نفسه ايلوغابال (Elogabalus) وقد كرس نفسه لشرب دياتته وانفس بلذاته الشخصية التي انتهت الى اشنع التهلك .

وكانت أمه وجدته تحكيان من وراء الستار وقد لاحظت تلك الاخيرة ان اسراف ايلوغابال (Elogabalus) سيجر حتماً الى سقوطه فعملت لابداله ابن ابنتها الثانية وهكذا كان . ولم يطل الامر حتى توفيت جوليا ميذا فتولت ابنتها الثانية جوليا ماماً (Mammaea) الحكم كوصية على ابنها اسكندر لانه كان قاصراً . ولم يتحرر هذا الولد من سلطة امه عند ما بلغ سن الرشد فكان ذلك حجة لبعض الطامعين بالحكم . وقد اعتادت (Mammaea) أن ترافق ابنها حتى في الحملات الحربية وقد نصحته في حملة المانيا سنة ٢٣٤ بان يفاوض العدو ويوقف القتال مما اثار جيوشه فقاموا بشرة دبرها مكسيوس (Maximus) القائد والامبراطور فيما بعد قتل فيها اسكندر ووالدته وكان موتها فائحة عهد سادت فيه الفوضى والحروب الداخلية التي انتهكت الامبراطورية .

الا ان اعظم هولاء النساء جميعاً هي زينوبيا العظيمة ملكة تدمر وقد

كانت حازمة ، على جانب عظيم من الجمال والعلم والمقدرة . وقد وثق بها زوجها الذي كآبت تشاركه طموحه وترافقه في القنص والحرب . وكانت تؤمن بمظنة تدمر وتطمح كزوجها الى تأسيس امبراطورية شرقية مستقلة تحت سيادة تدمر وقد آلمت الحكم بعد زوجها وعملت لتحقيق حلمها فوسمت حدود مملكتها شرقاً نحو بلاد ما بين النهرين وشمالاً غرباً نحو شرق آسيا الصغرى وضربت النقود بعد موت كلودس (Claudius) استمداداً للاستقلال التام . غير ان اورليان خليفة كلودس الذي لقب نفسه « بنقذ الشرق » قد احبط مساعها فبعد ان دخلت الجيوش التدمرية سوريا ومصر سنة ٢٧٠ واصبحت تمتلكات جنوبياً تمتد من مصر حتى بلاد ما بين النهرين ومن الهليون الى شمالي الجزيرة العربية تفرغ لها اورليان وكان قبل ذلك منهكاً بالحروب في الغرب . فبعد وصوله خانها اليونان والرومان وتحلوا عنها فثبتت جيوشها بنسائر فادحة على العاصي قرب انطاكية وهزمت شر هزيمة غير انها لم تأس بل جمعت مع قوادها قواتها ولاقت جيش الامبراطور ثابتيه في سهل حمص حيث اندحرت ايضاً . عند ذلك تراجعت الى تدمر فحاصرها اورليان الظافر ثم عرض عليها - لما بشروط خفيفة لكنها اخطأت في رفضها اياه فشدد الحصار عليها مما اضطرها الى الفرار الا ان اورليان سلق بها فأدركها ثم ساقها الى روما ليتزوج انتصاراته بعرض تلك الملكة على شبهه حيث ترى لآخر مرة جنوبياً التي حملت بان تصبح امبراطورة الشرق تدخل المدينة مزدانة بالحلي والجواهر البراقة مكبلة بسلاسل من ذهب . وان نجد عند العرب فيما بعد ملكة تضاهيها شهرة .

غير انه سيظهر بعد مضي قرن تقريباً على موت جنوبياً ملكة غسانية ذات بأس هي (Maura) التي ثبتت قدمها بين العرب عند موت زوجها ووقفت بوجه الامبراطورية الرومانية بين سنة ٣٧٣ و ٣٨٠ وكانت كجنوبياً تمتطي جرادها على رأس جيشها . وقد اصطدمت عدة مرات بجيوش الامبراطورية وخرجت منها جميعها ظافرة حتى اضطر الرومان الى قبول السلم الذي فرضنا عليهم ومن شروطها تثبيت مرشحها في ابرشية مملكتها المسيحية . وقد حافظت بعد ذلك على ولائها للرومان وكان لها ولقرانها اليد الطولى في انقاذ القسطنطينية من زحف الهوط .

ليس لدي ما يؤهلني لتفنيد مقال تاريخي مُسند كهذا . فالكتابة مجهولة عندنا وغايتها تظهر محض علمية لا تتمدى رغبتها إظهار موقف العرب من بعض الشخصيات النسائية الفذة وقبولهم بحقهن بالملك .

غير ان لا بد لمقال كهذا من ان يشير تأملات حول المرأة بصورة عامة . فما لا ريب فيه ان جميع من ذكرت الكتابة من نساء لم يقن باعمال خارقة ولا هن برهن عن قوة خلاقية مبدعة . ولكن ألا يكشف خروج المرأة الى الحياة العامة في تلك العصور البعيدة عن وجود امكانيات كامنة عندها تتعين الفرص للظهور وان في نفس المرأة مطامح غير ما فرضت عليها التقاليد وان في قلبها ظمأ لا يكتفى كل ما تقدم الحياة من غنى وجمال لا يقل عن ظمأ الرجل ولا يمكنها كبح جماحه عندما تسبح الفرص . اوليست تلك النزعة اللاواعية التي رمت بزنبقيا و(Mammæa) وغيرهما في معصمة الحياة هي نفسها التي نجد تعبيرها الواعي عند الـ (Féministes) في القرن الماضي والذي جر الى هذا الانقماش الطائش والانصتاق اللاواعي الذي نشهده اليوم عند المرأة في جميع مرافق الحياة انصتاق ليس بغريب عن هذه الفوضى التي يتخبط بها عالمنا اليوم وتدفع النساء ثمنه غالياً قبل اي مخلوق آخر .

هو صراع دخلته المرأة . فإما أن تكشف في رشفها ينابيع الحياة عن نفس خلاقية مبدعة تساهم بها مع الرجل في تعديل الكون وتمشي معه يداً بيد وإما ان تُنهك قواها وترزح تحت هذا الدب الثقيل فتتورد الى حياة البوردية المائتة . ان الجواب على هذه المعضلة هو رهين « الاختبار » وقد قررت المرأة ، وكأنها مدفوعة بقوة جبهرية جامحة ، ان تخوض غمار الحياة مهما كلفها الامر . فالحل الصحيح هو ذلك الذي سينبثق من هذا الصراع المتيف لا ذلك الذي تليه علينا مخيلتنا فتثبث باراء واعتبارات تكهنية عن طبيعة المرأة وضعفها قد تكون وهمية خاطئة فتخور بها الحقيقة بدلاً من ان تجلوها .

اما نعت الدروية الذي تسبغه الكتابة على جميع هؤلاء النساء الشهيرات فلعلها توسعت في اطلاقه على خطة غير العلماء من المشتغلين بالشؤون الشرقية في زمننا الحاضر .